وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

القاضي عياض وكتابه الشفا

علي وكيل

■■ من خلال فصول الكتاب ، عرضاً وترتيباً وفكرة ، نشاهد بوضوح الاتجاه المنطقي في عرض الفكرة وما يتعلق بها من آراء وأقوال ، ثم في مناقشة هذه الأقوال والآراء مناقشة هادئة تظهر عليها روح القاضي الهادئة وأفكاره المنظمة ، وعندما نصل إلى نهاية كل فصل نشعر بوضوح أننا في محكمة عادلة يهيمن عليها فكر واعٍ حصيف وقلب مدرك حساس ■■

حياته

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصُبي .. إذ يرتفع نسبه إلى يحصب بن مالك بن يزيد ، ويحصُب هو أخو ذي اصبح الحارث بن مالك بن زيد الذي ينتهي إليه نسب الإمام مالك بن انس الأصبحي ، وبهذا يمت القاضي عياض إلى الإمام مالك بصلتين :

صلة القرابة والانتساب إلى قبيلة حمير من عرب اليمن .

وصلة المذهب المالكي الذي يتبعه سكان المغرب ، وكان عياض من أبرز اعلامه .

كان منزل أجداده بمدينة بسطة التي تبعد مائة وثلاثة وعشرين كيلومتراً نحو الشمال الشرقي من مدينة غرناطة ، ومنها انتقلوا إلى فاس ، ثم إلى سبتة ..

ذكر ابنه في : « التعريف » أن سلفه قد استقروا بالقيروان ، غير أنه لم يدْر هل كان استقرارهم بها قبل نزولهم بالأندلس أو بعده ، ولا يعرف في عداد أهل العلم أحد من أجداده ، غير أن بيتهم كان من البوتات النابهة **بفاس وسبتة** ، وأن جده **عمرون** الذي انتقل من **فاس** إلى **سبتة** حوالي سنة (٣٧٣هـ) كان من أهل الخير ، حافظاً للقرآن ، حج إحدى عشرة مرة ، واشترى أرضاً بسبتة من ماله الخاص ، جعل جزءاً منها وقفاً على المسلمين يدفنون فيه موتاهم ، وجزءاً بنى فيه مسجداً ، وديراً جعلها حبساً على المسجد ، وأنه لازم هذا المسجد للتعبد إلى أن مات سنة (٣٩٧هـ) .

وَبسَبْتَةَ حسبما نقل القاضي بخطه ، وعنه نقل ابنه محمد ، وُلِدَ القاضي **عياض** في منتصف شعبان سنة : (٤٧٦هـ) .

فما هي العوامل التي ساهمت في تكوين هذه الشخصية ذات الشهرة الفائقة في المشرق والمغرب ؟

يمكن إجمال هذه العوامل في الأمور الآتية :

[١] بيئته :

فقد ولد بمدينة سبتة التي كانت تعيش نهضة علمية حافلة ، « وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً نشيطاً مفتوحاً على العالم الخارجي من جهة المبادلات الاقتصادية التي تؤدي إلى انتقال الرجال والأفكار وبالتالي إلى تلاقي الثقافات والحضارات »[1] ، وقد لخص **ابن عذاري المراكشي** مزايا سبتة في عبارة جامعة فحواها « **ولم تزل دار علم** » ، وهي عبارة تبرز المكانة الثقافية لهذه المدينة المغربية ، التي عرفت وفوداً جمة من العلماء ورجال الفكر ، يمكن تصنيفهم كما يلي :

● علماء ينتسبون إلى الأندلس وإفريقيا والمشرق ، لم يدخلوا سبتة ولم يقيموا فيها للتعليم ، بل ذهب السبتيون إليهم قصد التلقي وأخذ العلم ، وقد ذكر القاضي عياض في كتابه « **الغنية** » أسماء هؤلاء ، وتراجمهم ، وأسماء شيوخهم ومنهم : **أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي الأندلسي دفين الإسكندرية سنة (٥٣٠هـ)** .

● علماء ليسوا من أهل سبتة أصلاً ، إلا أنهم أقاموا فيها مدة قصيرة أو طويلة قصد التدريس فيها ، وقد أخذ عنهم الطلاب واستفادوا منهم .. ومن بينهم :

أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأشبيلي دفين فاس (٥٤٣هـ) ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بقلم : لطيف احمد

□ كان القاضي دائم الصلة بعلمه قراءة ودراسة وبحثا وتأليفاً لم يعرف قلمه الحياد السلبي بل كان ملتزما بقضايا أمته ..

قال عنه **القاضي عياض** :

« واجتاز ببلدنا عند انصرافه من المشرق فكتبت عنه حينئذ فوائد من حديثه ، وناولني كتاب « المؤتلف والمختلف » للدارقطني » .

● علماء سبتيون أصلاً ، وكانت لهم اليد الطولى في ازدهار الحركة العلمية بسبتة ، وفي توسيع روابطها بالحواضر الإسلامية الشهيرة في أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس الهجري ، ومنهم :

القاضي ابو عبد الله محمد بن عيسى التميمي المتوفى بسبتة سنة (٥٠٥هـ)[٣] .

[٢] ثقافته :

اتفق المترجمون له على أنه كان يتصف بالذكاء والفهم ، والحذق والفطنة والتيقظ ، والحرص على طلب العلم ، وقد هيأته هذه المواهب بالإضافة إلى الحركة العلمية التي كانت مزدهرة في سبتة مسقط رأسه إلى أن يكون له هذه الثقافة الشمولية ، التي تسمح له بأن يخوض في علوم كثيرة .. ففي بلدة سبتة حفظ القرآن الكريم بقراءاته السبع ، **وقرا اللغة العربية في كتاب « الفصيح لأبي العباس ثعلب » .. وكتاب « الأمالي » لأبي علي القالي ، و « الكامل » للمبرد ، و « ادب الكاتب » لابن قتيبة ، ودرس قواعدها في كتاب : « الجمل » للزجاجي ، و « الواضح » لأبي بكر الزبيري ، و « الكافي » لابن النحاس ، و «المقتضب» للمبرد ، و «الإيضاح» لأبي علي الفارسي ..**

كما قرأ أصول الفقه ، وأصول الدين ، وعلم الكلام على مذهب **أبي الحسن الأشعري** ...

وقد جعلته قراءاته المتنوعة ذا شهرة في علم الفقه على المذهب المالكي ، وعلم الحديث ، ويذكر المترجمون مشاركته في مختلف العلوم ، كالنحو واللغة والأدب والتاريخ والتراجم وكلام العرب ، وأيامهم وانسابهم ، مما جعل منه عالماً موسوعياً ذا باع طويلة وعارضة قوية في سائر المعارف الإنسانية التي كانت رائجة في زمنه ، ويؤيد ذلك مؤلفاته العديدة المتنوعة الأغراض[٣] .

وبهذه الحصيلة الأدبية واللغوية استطاع **عياض** أن يؤلف كتاب : **« المشارق » في تفسير غريب حديث الموطا والبخاري ومسلم** ، وضبط الفاظ هذه الكتب ، والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات فيها بالإضافة إلى تحقيق اسماء الرجال واختلاف الروايات ، ومثال ذلك يقال في شرحه لحديث أم زرع المسمى **« بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد »** ، وهو في مجلد مشحون بالفوائد اللغوية والأدبية ، والشواهد الشعرية للألفاظ الغريبة التي جاءت في الحديث المذكور .

هذا التعدد في المشارب ، وهذه الخبرة بالأساليب هيأت للقاضي أن يحقق أعماله الكبرى ، ويأتي بما عجز عنه غيره ، ولا سيما من المعاصرين له ، وهو في المجال الأدبي ؛ لا يكتفي بالتأليف والمناقشة بل يتعدى ذلك إلى الممارسة الفعلية ، والتجربة العملية للإنتاج الأدبي ، غير أنه كناثر أكثر منه كشاعر ...

[٣] رحلته :

رحل القاضي عياض إلى الأندلس ، وهو يتوخى من وراء رحلته هدفين اثنين :

(أ) التأكد من سلامة المنهج النقلي وكماله ، ويتطلب ذلك تصحيح المتون المروية ، والبحث عن أصولها ، ووصل أسانيدها بأصحابها .

(ب) تصحيح منهج التفكير ، وإقامة أسسه على قواعد ثابتة ، وتقول مصادر ترجمته : **« إنه عني في رحلته بلقاء الشيوخ ، ولم يكن غرض عياض الأساسي من رحلته ان يرى وجوه الشيوخ ، وإنما كان يُعنى بعد ان سلم له المنهج النقلي ، ان يقابل افكارهم فيزنها بما تعلمه في بلده من افكار .. وبعملية الاختبار والمفاضلة والتنقيح تم له بناء الجهاز النقدي ، وتكاملت له اسس التفكير على اساس من المقارنة والاختيار ..**

[٤] سلوكه :

يقول عنه ابنه محمد في «التعريف» :

« إنه لما ولي القضاء ، كانت الخاصة والعامة على غاية من محبته وإجلاله وإكباره ، وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة ، ما جعلهم يقبلون قوله حين يطالبهم باداء حق من حقوق الرعية ، ويتنافسون في قضاء حقه ، والقيام بواجبه »[٤] .

وقد كان صلباً في الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، مجداً في طلب العلم ، محرضاً على طلبه ، كثير التواضع ، يقبل على المساكين والفقراء فيسأل عن أحوالهم ، ويكثر الصدقة عليهم ، ويعاشر الناس بالأخلاق الحسنة ، والجانب اللين ، ويؤثرهم بما يجد[٥] .

وكان متين الدين ، مجتهداً ، كثير الصوم ، قوّام الليل ، تالياً لجزء من كتاب الله عز وجل في الثلث الأخير من الليل ، لم يتركه ما قدر على تلاوته في أية حالة ، ملتزماً بحدود الشريعة ، سنياً في عقيدته ، شديد التمسك بها ..

This file was downloaded from QuranicThought.com